

أفارقة في المدينة الوجود الإفريقي في المدينة المنورة في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي

د. أنعم محمد عثمان الكباشي *

تمثل أرض إفريقيا أهمية قصوي في تاريخ الإسلام ، وذلك لأنها لعبت دور الملاذ الآمن في الفترة الأولى من ظهور الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة ، إذ هاجر إليها عدد من المعلمين هربا من بطش قريش ، وقد وجد هؤلاء المسلمين في إفريقيا أرضا خصبة لإظهار الحق واتباع الحجة بالحجة ، ويظهر ذلك بوضوح في النقاش الذي دار بين المسلمين المهاجرين ووفد قريش والنجاشي ملك الحبشي.

لقد شكل هذا النقاش المبكر النقطة الخضراء التي تشير إلي أن الإسلام سوف يجد بيئة صالحة وسط شعوب إفريقيا وقبائلها ، وهذا ماحدث في الاعوام اللاحقة إذ بدأت شعوب القارة الإفريقية رويدا رويدا تعتنق الدين الإسلامي وتجعله منهاجا لحياتها مع التمسك ببعض العادات والتقاليد المحلية ، وقد تمثلت أهم نتائج إنتشار الإسلام في إفريقيا في قيام عدد من الممالك والسلطنات ذات الصبغة الإسلامية مثل السلطنة الزرقاء وسلطنة الفور ومملكة غانا ومملكة مالي وغير ذلك من الممالك التي انتشرت بصورة متتابعة لإنتشار الإسلام ، لقد أدي قيام هذه الممالك الإسلامية إلي بداية التأسيس لمرحلة جديدة في علاقة المسلمين الأفارقة باخوانهم خارج القارة خاصة أولئك الذين يقطنون في أرض الحرمين الشريفين وتمثلت أهم ملامح هذه المرحلة في حرص المسلمين الأفارقة علي توطيد علاقتهم بأرض الحرمين الشريفين وعدم قطع هذه الصلة باي حال من الأحوال وقد لعبت فريضة الحج دورا بارزا في دعم هذه الصلة .

تتطرق هذه الورقة إلي الوجود الإفريقي في المدينة المنورة في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وتعتمد في تناول هذا الموضوع علي الوثائق العثمانية التي تعود إلي الفترة المشار إليها وبالتالي نكون قد تناولنا الموضوع من خلال مصادر تاريخية معاصرة له ولهذا السبب تعتبر الوثائق العثمانية وثائق مهمة للغاية من ناحيتين الناحية الأولى تعتبر وثائق معاصرة لموضوع الدراسة ، الناحية الثانية تعطي

* أستاذ مساعد قسم التاريخ كلية الآداب جامعة الخرطوم

هذه الوثائق معلومات مهمة عن وجود الأفارقة في المدينة وعددهم واسمائهم والاماكن التي جاءوا منها والدور الذي لعبوه في مجتمع المدينة في الفترة المذكورة . إن وجود عدد من مسلمي إفريقيا في المدينة المنورة بشكل مثبت بواسطة وثائق صادرة عن الدولة العثمانية التي كانت تمثل في تلك الفترة دولة المسلمين الأولى يعكس لنا مدي الوعي الفكري الذي كان عليه عدد من اسلافنا ، وذلك عندما لم يحصروا الإسلام والعمل له داخل مناطقهم فحسب بل رأوا ضرورة الهجرة إلي أرض النبوة حتي يكون لهم أسهام علمي وعملي هناك .

من الصعوبة ان نحدد تاريخا بعينه عن بداية هجرة الأفارقة المسلمين إلي المدينة المنورة ، بيد أنه يمكن القول أن هذه الهجرات بدأت بعد دخول الأفارقة في الإسلام ، لذا فإن القرن العاشر الهجري لايمثل البداية الفعلية لهذه الهجرات وإنما يثبتها ولعل السبب في ذلك يعود إلي أن معظم الدول الإسلامية لم تعط موضوع التدوين أهميته التي يستحقها عكس الدولة العثمانية التي كانت تحرص دائما علي تسجيل كل شيء

تذكر الوثائق العثمانية أن هناك عددا من الأفارقة المسلمين الذين يعيشون في المدينة المنورة في فترة القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ونلاحظ أن هذه الوثائق تقسم المسلمين الافارقة إلي أربعة مجموعات ، وقد بين هذا التقسيم علي أساس جغرافي بحت ويتضح ذلك من خلال تناول هذه المجموعات علي النحو التالي :

- 1- تتشكل المجموعة الأولى من المسلمين الافارقة القادمين من مصر ، وقد اطلقت عليهم الوثائق العثمانية اسم " مجاورو مصر "
- 2- تكونت المجموعة الثانية من المسلمين الافارقة القادمين من بلاد المغرب العربي ، وقد عرفت هذه المجموعة في الوثائق العثمانية تحت اسم " مجاورو أهل غرب "
- 3- تشمل المجموعة الثالثة الافارقة المسلمين القادمين من شرق إفريقيا ، وأشارت الوثائق العثمانية لهؤلاء باسم " مجاورو الجبرت " .

4-تحتوي المجموعة الرابعة علي الأفارقة المسلمين القادمين من غرب إفريقيا ، وقد تم التعريف بهذه المجموعة في الوثائق العثمانية تحت اسم " مجاورو التكرور "

- بناء علي احدي الوثائق العثمانية التي تعود غلي عام 1003 - 1594 - 1595(2) يمكن توضيح عدد أفراد كل مجموعة من المجموعات المشار إليها علي النحو التالي :

اسم المجموعة	العدد	النسبة من العدد الكامل للمجاورين
مجاورو مصر	37	8.60 %
مجاورو المغرب	19	4.72 %
مجاورو الجبرت	10	2.33 %
مجاور التكرور	5	1.16 %

تذكر وثيقة عثمانية أخرى أن عدد أفراد مجموعات مجاورو المغرب والجبرت والتكرور لم يحدث فيه أي تغيير في العم الموالي أي عام 1004 - 1595 - 1596 ، والتغيير الوحيد الذي طرأ كان في مجموعة مجاورو مصر ، حيث انخفض عدد أفراد هذه المجموعة من 37 فرد إلي 36 شخص (3) ، بيد أن هذه الوثيقة لم تمدنا بأي معلومات يمكن أن تقودنا إلي معرفة مصير هذا الشخص الغائب ، ويمكن أن نعزي عدم ذكر هذا الشخص إلي سببين هما :

1- الوفاة

2- العودة إلي بلادي أي مصر .

غير أن من الضروري جدا أن نوضح أن هذا الرقم من مجاورو أفريقيا لايعكس العدد الحقيقي لهؤلاء المجاورين وإنما يشير إلي الحد الأدنى منهم ، ومن الضروري هنا أن نبين أن افراد هذه المجموعات تم تدوينهم لأنهم كانوا من الشرائح التي تسقط الصرّة العثمانية (4) وبناء علي ذلك يمكن أن نصفهم ضمن المجموعات الفقيرة .

يجب أن نذكر هنا أن العثمانيين كانوا يسجلون أسماء جميع الوافدين إلى المدينة المنورة من جميع أنحاء العائد الإسلامي ، وربما كان هدفهم من ذلك إحصاء عدد سكان المدينة الذي كان يتشكل من مجموعتين رئيسيتين هما : الأهالي الأصليين أي اعناصر التي يعود نسبها إلى الأنصار وقد أطلق العثمانيون علي هذه المجموعة " أهل مدينة " (أهل المدينة)، أما المجموعة الثانية فتضم المسلمين المهاجرين إلى المدينة المنورة من جميع أرجاء العالم الإسلامي ، وقد أطلقت الوثائق العثمانية علي هذه المجموعة اسم " المجاورين" وذلك حتي يتم فصلهم عن أهل المدينة الأصليين ، وعلي سبيل المثال تذكر وثيقة صادرة في عهد السلطان سيحان القانوني (1520 - 1566) أن هناك تسعة أفراد جاءوا إلى المدينة من أنحاء شتي بهدف المجاورة وكان يوجد من بينهم شخص من المغرب أطلقت عليه الوثيقة اسم " ربحان المغربي " وقد صدر حكم من الحكومة المركزية في استانبول بتاريخ 2 رمضان 963 / 10 يوليو 1556 يدور حول تخصيص منحة سنوية من الدولة العثمانية لهؤلاء القادمين الجدد (5)

من جانب آخر تذكر الوثائق العثمانية مجموعة من الأفارقة الوافدين كانت تسكن في المؤسسة التي عرفت باسم " مؤسسة الرباط " (6) واحتوت هذه المجموعة علي عدد من الرجال والنساء من مختلف أنحاء القارة الإفريقية من مصر والمغرب وتونس ومراكش والحبشة والتكرور (7) وهي تعكس لنا أيضا التأصل الإفريقي في المدينة المنورة ، ويمكن أن نتناول هذه الشريحة وفقا للجدول التالي

:

اسم الرباط	اسم الساكن	منطقته	عدد سكان الرباط
سبيل	ام محمد	الحبشة	10
سبيل	مريم	مصر	10
الأصفهاني	مرجان	الحبشة	5
عثمان أغا	رقية	الجبرت	3
عشر	دام السرور	الجبرت	1
الأنصارية	محمد بن علي	المغرب	20

20	المغرب	أخت كمال	الانصارية
20	التكرور	طاهر	جعفر للمتزوجين
24	مراكش	حاج أحمد	محمد النشا الأنصاري
24	المغرب	منصورة بنت لجوب	محمد النشا الأنصاري
24	تونس	فاطمة بنت محمد	محمد النشا الأنصاري
24	التكرور	فاطمة	محمد النشا الأنصاري
10	التكرور	أغا إسماعيل	الأغوات
24	التكرور	محمد	بلال اغا
24	مصر	عمر	التقي
28	مصر	شيخ عبدالرحمن	عبدالكريم الاعجمي
13	تونس	فاطمة	المنقطعين
13	الحبشة	شيخ بدرالدين	سنان جلبي
13	المغرب	محمد	شان جلبي
23	المغرب	علي	بدرالدين المصري
23	المغرب	علي اسيل	بدرالدين المصري
23	مصر	ناصر	بدرالدين المصري
23	التكرور	ابوبكر	بدرالدين المصري
23	مصر	ادريس	بدرالدين المصري
23	مصر	محمد	بدرالدين المصري
23	مصر	شيخ محمد	ابوالقاسم الفناري
16	التكرور	مريم	اسكي خزينة دار

25	التكرور	مباركة	خزينة دار ابراهيم
25	المغرب	شيخ محمد	خزينة دار إبراهيم

يلاحظ من خلال الجدول اعلاه أن عدد الأفارقة الذين كانوا يقطنون في أربطة المدينة المنورة في عام 999 / 1590 - 1591 بلغ إثنين وثلاثين شخصا منهم واحد وعشرين رجلا واحد عشر امرأة ، أما من حيث توزيعهم الجغرافي فنجد أن منهم اثني عشر شخصا من المغرب العربي وثمانية اشخاص من التكرور وسبعة افراد من المصريين وخمسة أفراد من شرق إفريقيا .

نفهم من خلال المعلومات الواردة في الوثائق العثمانية أن المسلمين الأفارقة لم يعيشوا حياة منغلقة بعد هجرتهم إلي المدينة المنورة ، بل كان لهم دورا مؤثرا في حركة مجتمع المدينة ، وقد ساهموا في إثراء هذا المجتمع بشكل واضح ، وقد شغل جزء من هؤلاء المهاجرين وظائف عالية ومهمة للغاية ، وعلي سبيل المثال نجد أنه في عام 992 - 1583 - 1584 كان هناك ثمانية من أغوات الحرم النبوي الشريف من إفريقيا وعلي الخصوص من شرق وغرب إفريقيا (8) وقد كان مجمل عدد الأغوات في هذا العام أربعة وأربعين اغا ، ويمكن أن نذكر اسماء الأغوات الأفارقة علي النحو التالي :

اسم الأغا	موطنه
ياقوت	غرب إفريقيا
بلال	"
ادريس	"
موسي	"
اسماعيل	"
عمر	شرق إفريقيا
صالح	"
آدم	"

يتبين لنا من خلال الجدول أعلاه أن قائمة الأغوات لم تضم شخصا من مصر أو من المغرب العربي ، ونحن من جانبنا لانملك معلومة يمكن أن تفسر لنا ذلك

، غير أنه إذا تتبعنا هذه الوثائق العثمانية بشكل متسلسل يمكن التوصل إلي نتيجة في هذا الموضوع ، وإذا رجعنا إلي الفترات السابقة لهذه الفترة لوجدنا أن كثيرا من أغوات الحرم النبوي كان من الأحباش ، وسوف يواجهنا الأمر نفسه عندما نتناول مجموعة الأفارقة التي شغلت مناصب دينية أو علمية أو إدارية أو عسكرية ، إذ نلاحظ أن هذه المجموعة ضمت أفراد من مصر والمغرب العربي دخلت من أي شيء من منقطني شرق أو غرب إفريقيا(9) ونذكر أسماء هذه المجموعة علي النحو التالي :

اسم الشخص	الوظيفة	الموطن
نورالدين بن سبيع	مؤذن	مصر
عبدالرحمن	مؤذن	مصر
حاج إبراهيم	بواب باب السلام	مصر
عبدالجواد	فراش	مصر
شهاب الدين	خياط	مصر
حاج علي بن احمد	نجار	مصر
محمد	عسكري	مصر
احمد بن محمد	عسكري	مصر
شيخ محمد	مدرس	المغرب
شيخ عيسي	فقيه	المغرب
شيخ محمد	كناس (أحد كناس الحرم النبوي)	المغرب

ويجب أن نشير إلي ان أول خطيب يتم تعيينه من أهل السنة في الحرم النبوي بعد عام 682 - 1283 كان مصريا من دمنهور وهو السراج عمر بن احمد بن الخضري الأنصاري الدمنهوري الشافعي (10) ومن علماء المغرب نذكر العالم عبدالعزيز بن عبدالواحد بن محمد المغربي وهو عالم واديب وشاعر كتب اشعارا في شتي العلوم ، وقد شغل منصب شيخ القراء في المدينة فترة من الزمن ، وفي عام 951 - 1544 سافر إلي القدس ودمشق وبعد أن عاد من رحلته هذه توفي

في المدينة المنورة عام 964 - 1556 - 1557 (11) ومن جانبها تشير
إحدي الوثائق العثمانية إلي أن أحد السادة الذين ينحدرون من سلالة الحسن بن
علي بن أبي طالب كان من شرق السودان وبالتحديد من سواكن ، وهو يدعي "
السيد محمد " وقد عاش في المدينة المنورة في اواخر القرن العاشر الهجري /
السادس عشر الميلادي ، وقد كان علي قيد الحياة حتي عام 1004 / 1595
- 1596 (12)

ومن الملاحظ أن هذه المجموعات الإفريقية التي هاجرت إلي المدينة المنورة
مازالت متمسكة وهي في وطنها الجديد بالمذاهب الفقهية السائدة في مواطنها
الأصلية ، حيث استقر المغاربة في المدينة وهم جميعا علي المذهب المالكي ،
وقد شاركهم في هذا المذهب جيرانهم القادمين من غرب إفريقيا ، أما المصريين
فقد التزموا بمذهبهم الشافعي ومعهم المسلمين الوافدين من شرق إفريقيا .

أهل المغرب	←	مالكية
أهل مصر	←	شافعية
أهل الجبرت	←	شافعية
أهل التكرور	←	مالكية

نختم هذه الورقة بأيراد بعض النقاط التي نري أن من المهم توضيحها ولعل أهم
هذه النقاط تتمثل في أن تناول موضوع الوجود الإفريقي في الحرمين الشريفين (
مكة المكرمة والمدينة المنورة) يحتاج لجهد علمي كبير ، وينبغي لهذا الجهد
العلمي ان يعمل علي تتبع الوثائق العثمانية التي تتناول هذا الموضوع تتبعا زمنيا
، وذلك حتي يتم التمكن من وضع صورة كاملة عن وجود المسلمين الأفارقة في
مكة والمدينة ، وسوف تكون من أهم نتائج هذه المتابعة الزمنية للوثائق العثمانية
هي ربط المهاجرين الأفارقة بجذورهم الإفريقية التي تركوها في الوطن مع
امتداداتهم التي اقاموها في أرض الحرمين الشريفين ، وسوف يتمكن الباحثون
بواسطة هذه الوسيلة من تتبع حركة الأسر الإفريقية سواء في مكة أو المدينة ،

ومن جانب آخر سوف تحدد الوثائق العثمانية المواطن الأصلية لكثير من العناصر الإفريقية الموجودة حتى اليوم في أرض المملكة العربية السعودية ، وبناء علي ذلك فإن هذه الورقة عبارة عن مجرد مدخل لهذا الموضوع الذي لم يجد حظه من البحث ولعل عائق اللغتين العثمانية والتركية يقف عائقا أمام كثير من الباحثين الجادين ، ومن النقاط المهمة التي يجب أن نشير إليها هي أن هؤلاء الأفارقة لم يهاجروا إلي المدينة المنورة بهدف المجاورة والعبادة فحسب ، بل كان لهم كبير وهو التفاعل مع مجتمع المدينة والمشاركة في الحياة الاجتماعية والثقافية ونحو ذلك وقد تمثل هذا الأمر في تلك الوظائف التي كان شاغلوها من مسلمي افريقيا ، لذا وجدنا منهم من اشتغل بالعلم فصار من المدرسين أو الفقهاء أو الخطباء ومنهم من تقلد مناصب دينية مثل المؤذنين ومنهم من اتجه إلي العمل الإداري مثل أغوات الحرم النبوي الشريف ، وهكذا نلاحظ أن الافارقة الذين كانوا يعيشون في المدينة المنورة في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي قد كان لهم دور فعال في إثراء مجتمع مدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم .

الهوامش :

1- كانت الدولة العثمانية مثلا تسجل أسماء السكان في كل منطقة من مناطقها الإدارية ، ومن خلال هذا الإحصاء السكاني يستطيع الباحث أن يعرف عدد المسلمين وكذلك عدد المسيحيين ونسبة المتزوجين ونسبة غير المتزوجين وعدد النساء الأرامل ، كما كانت تقوم بتدوين عدد العقارات والمحلات التجارية والحقول والحدائق وغير ذلك .

2- Topkap , faray Muzesi Arfivi (TSMA) , Surre Deflerlen no. 1214 , p.23a – 36a

3- TSMA,SD, no. 120912 ,p.21a – 34a.

4- يطلق مصطلح الصرة علي الأموال والهدايا المرسلة من طرف سلاطين الدولة العثمانية إلي السادة والإشراف والأعيان وأصحاب الوظائف والفقراء والمساكين الذين يعيشون في مكة المكرمة والمدينة المنورة والثابت تاريخيا أن هذه العادة بدأت في عهد الدولة العباسية في فترة الخليفة المقتدر بالله ، إلا أنها لم تأخذ شكلا منتظما وسياسيا إلا بعد أن الحق السلطان سليم الأول (1512 - 1520) كل من مصر والحرمين الشريفين إلي الإدارة العثمانية ، وكان هذه الأموال ترسل من استانبول ضمن قافلة تحتوي أيضا علي الحجاج وهي بمثابة منحة سنوية من الدولة العثمانية للشرائح المذكورة ، بيد أن المستفيد الأكبر من أموال اصرة هذه هم الفقراء والمساكين ، وبما أن المدينة المنورة لا تمثل الوطن الأم لهؤلاء الأفارقة المسلمين ، فإنه سوف لن يكون لديهم بالتالي أراض زراعية أو ماشية أو عقارات أو أي مصدر آخر يمكن أن يجلب لهم دخلا معتبرا . ولهذا السبب كانوا من الشرائح التي تستحق هذه المنحة السنوية ثم تطور مصطلح الررة من بعد ذلك ليشمل كبار رجال الدولة والأغنياء حيث قام هؤلاء بوقف جزء من ممتلكاتهم لصالح فقراء مكة والمدينة للاطلاع أكثر حول هذا الموضوع انظر : Munir Atalar , Osmanl , Devfeti'nde surre-l Humayun re surne Alaylari , Ankara , Diyanet Isleri Bakanlig , yaymlar, 1991, Ibraim Ales , " Osmanhlar Zamaninda Mekka , ve Medline'ye Gonderilen Para re Hediyeler " Vakiflar

Dergisi, x111 Ankara , Valgflar Genel Mudurlvgau yayinlari, 1981 p.116, Anam Mohamed Osman Elkabashi , surre defleri , yuksek lisanskzi islfanbul Universitesi , sosyal Bilimler Enstitusu, Basbkanhk Osmanl , Arsivi (BOA) Kamil Kepeci -5 (KK) , no . 215 , p,65

6- يمكن أن نؤرخ لمؤسسة الرباط في التاريخ الإسلامي بعهد النبي صلي الله عليه وسلم ، وذلك عندما خصص القسم الأخير من مسجده لفقراء المسلمين الذين كانوا يشتغلون بالعلم والذين أطلقت عليهم المصادر التاريخية اسم " اهل الصفة " بيد أن هذه المؤسسة تشكلت بصورة واضحة في عهد الدولة العثمانية واصبحت تلعب دورا اجتماعيا وعلميا مؤثرا ، وقد تمثل الهدف الأساسي من إنشاء هذه المؤسسة في التالي: أ - استغلالها كاماكن للسكن ب- استغلالها كدور لتلقي العلم - وقد بلغ عدد الأربطة الموجودة في المدينة المنورة في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وبصفة خاصة في عام 1000 / 1591 - 1592 تسعة وثمانين رباطا TSMASD, no ,121 p.,lb - 40 وهذا يعني مدي الازدهار الذي بلغته هذه المؤسسة في هذه الفترة ، وقد قسم العثمانيون هذه الأربطة إلي أقسام عدة منها تلك التي تم تخصيصها لعامة الناس ، أما بقية الأربطة فتم تقسيمها علي النحو التالي : أ - أربطة خاصة بالمتزوجين فقط وهي أربطة لايسمح فيها باقامة العزاب او غير المتزوجين - ب - أربطة خاصة بالمتقطعين وهم الذين انقطع بهم السبيل فكان هؤلاء يقيمون في هذه الأربطة حتي يتم توفير المال اللازم لهم من أجل العودة إلي بلادهم . - ج - اربطة خاصة باقامة أغوات الحرم النبوي الشريف د - أربطة خاصة باقامة النساء الأرامل ه - اربطة خاصة بالرجال فقط - و - أربطة خاصة بالنساء فقط ، والرباط عبارة عن مجموعة من الغرف يحيط بها سور ، وكان كل شخص تخصص له غرفة مستقلة من أجل اقامته ، وكانت هناك هيئة لإدارة كل رباط من الاربطة ويتفاوت عدد غرف الأربطة من رباط لآخر ، ويحتوي أصغر الأربطة علي بضعة غرف في حين يحتوي الرباط الكبير علي

- عشرات الغرف للإطلاع علي تفاصيل هذا الموضوع انظر : ابن فرحون ،
تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق حسين محمد علي شكري ، بيروت 1416 ،
الامام شمس الدين السخاوي ، التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة الجزء
الأول ، بيروت ، دار الكتب العلمية 1414 - 1993 Anam -
Mohamed Osman Elkabashi , Osmanl , Mediresi XVI
yy , da Moktara Tezi , Istanbul Universiten , sasyal ,
Bilimler Enstitusu, 2006
TSMASD, no , 1216-7
TSMASD, no 4120-8
TSMASD 1209L2, TSMASD , no 1316-9
-10 السخاوي ، المصدر نفسه ، ص 28
-11 محمد بن حسن بن عقيل موسي ، المختار المصون من اعلام
القرون الجزء الأول ، جدة دار الأندلس 1415 / 1995 ص 667
-12 TSMASD , no . 1209L2, p.25a